

الفصل الثالث

جوانب المتنبي

١ - شعره

١ - الموهبة والصياغة في هذا الشعر

الطبع والإلهام أساس الشاعرية ، وقد كان المتنبي شاعراً مطبوعاً نطق بالشعر وتأتى له وهو غلام ، وفي ديوانه قصائد قالها في صباه دلت على ما سيكون لصاحبها من شأن ومكانة . وكان لحياته الأولى في البادية وبين الأعراب ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة في موضعها من كلام العرب ، أثر راسخ في موهبته وطبعه ، حتى إن مياسم البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده ، لقد مزج روحه بالبدوة وعمق إحساسه فيها فقال :

كم زورة لك في الأعراب خافية أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
وعرف أسرار الجمال فيها فقال :

ما أوجه الخضر المستحسنت به كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البدوة حسنٌ غيرٌ مجلوب

وصور ممارسته للبادية مقيماً ومرتحلاً في هذا البيت :

أواناً في بيوت البدو رحلى وآونةً على قند البعير^(١)

وفي أرجائها امتد خياله وعلقت بذهنه بقاعها وفلواتها ، وجرت على لسانه لغتها في تصوير سلاحها وخيلها وإبلها وكأنه واحد من أهلها ، حتى بعد تجواله في البلاد وتمازجه بالملوك والكبراء وأهل الخضر والترف . لقد رفد هذه الفطرة

(١) الرجل : كل ما يستصحب الراحل من أثاث ونحوه . والآونة : جمع أوان . والقتد : خشب الرجل . يصف طول ارتحاله وكثرة تردده في البوادي . وأفرد الأوان في الأول وجمعه في الثاني إشارة إلى أن ارتحاله كان أكثر من فزوله .

والسليقة بمعرفة واسعة في كلام العرب وإدراك لحفايا اللغة وسر البيان فجاءت صياغته من طراز رفيع ، فيه الأصالة والجزالة ، وفيه الفكرة الصائبة والروعة الباقية .

وكان مردّ المتانة في الشعر العربي وإحكام صوغه إلى الشعر الجاهلي ، وحين تحدر هذا الميراث إلى العصر الأموي فبدأ في الشعر الجذل دخل عليه التطور حتى جاء عهد العباسيين والأندلسيين ، فطبع بطابع التجديد ، وجاء عصرنا فأعاد إليه رونقه السابق وخلصه مما علق به في عهود التخلف ، ناظراً إلى أبي الطيب وكأنه نبراس لا ينطفيء لإحياء الشعر العربي على مدى الزمن .

ولا يعيب أبا الطيب ما جاء في بعض شعره — مما تتبعه عليه الشعالي في اليتيمة — والجرجاني في الوساطة ، فإن للبلاغيين آفات تلازم أعمارهم ؛ وكان هذان يعجبان به لكن هنالك فئة من الباحثين عن عيوبه ظهروا بروح حساد أكثر مما تناولوه بتسامح العلماء ، على أن هذا الشعر لم يسلم من الشوائب ، وأى شاعر خلا قصيده من خطأ أو زلل .

ب — ألوانه

كان شعر أبي الطيب المتنبي صورة صادقة لعصره ومآة للحوادث والمحن في أيامه ، وما من شك أن السياسة والعروبة المتأصلة في فؤاده والبيئة الاجتماعية كل ذلك قد ألهمه بالشعر عبر به عن رأيه ومذهبه وخلجات نفسه . فهو يقول في واحد من أدعياء العلويين حين مدح الأمير أبا محمد الحسين بن طغج بالرملة : وفارقت شرّ الأرض أهلاً وتربةً بها علوى جسدّه غيرُ هاشم ولقد طرح في شعره صوراً لكل ما كابده في حياته وهذه الصور كان يأتي بها خلال قصائده موزعة حسبما تدعو إليها المعاني والخواطر التي كان يسوقها .

رأى ما كانت عليه السياسة في زمنه من تحكم ملوك العجم وأمرائهم بخليفة المسلمين وملوك العرب ، وعابن هوان الأمة العربية يومذاك بما أصابها من الترك والعجم والزنج فنفس في شعره عن سحقه المكبوت .

وكان المتنبي يحسّ في نفسه حافزاً قوياً لاستعادة الأجداد العربية ، وقد

شاعت في شعره - حيثما قاله - نزعة إلى العروبة وبعثها وتعميمها . فكان يصف
الكرم وأهل النجدة والأبطال بأن خصالهم عربية ، وفضل السيوف العربية على
السيوف الهندية بمثل قوله :

تُهَابُ سيوف الهند وهى حداثدٌ فكيف إذا كانت نزاريةً عرباً
كما كان يذمّ العجم وينال منهم في مثل قوله :

أفعالُ من تلد الكرام كريمةٌ وفعالُ من تلد الأعاجم أعجمُ

وكان المتنبي أكثر شعراء عصره حماسةً للقموية العربية وإحياءاً لها ، بل كان
يذهب إلى أبعد من ذلك . إذ وقرّ في عزيمته أن يعيد للأمة العربية مجدها الزائل
بتأليف العرب وتأليبهم على العجم في حرب عاصفة يكون هو قائدها ، وقد
كشف عن عزيمته هذه حين قال أحياناً يخاطب بها أبا عبد الله معاذ اللاذق
يوم نزل عنده باللاذقية سنة ٣٢٦ للهجرة وهو في صدر عمره متوقد النخوة
والهمة ^(١) يصف فيها مطلبه الجسم وما هو قادم عليه من المغامرة والخطر ، وكان
إنذار المتنبي بثورته العربية بادياً في هياجه النفسى الذى عبر عنه بقوله المتوعد :

لأترُكن وجوهَ الخيل ساهمةً والحربُ أقومُ من ساق على قدم
تنسى البلادَ بروقَ الجو بارقي وتكتفى بالدمّ الجارى عن الديم ^(٢)
ميعادُ كلِّ رقيق الشفرتين ^(٣) غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وقد عاين أبو الطيب الحالة الاجتماعية في الأمراء والعبيد فقال منهكاً - ولعل
ذلك لما قساه من كافور :

فلا ترجّ الخير عند امرئ مرّت يد النخاس في رأسه ^(٤)
وحين هجا كافوراً راح يقول بأسلوب التّهمك اللاذع ، فضلاً عن الهجاء :

(١) راجع قسم المنتخبات من هذا الكتاب فقد أثبتنا فيه من شعر المتنبي طائفة تدل على توثبه
وثورته .

(٢) الديم : المطر مفردة ديمة .

(٣) رقيق الشفرتين : السيف ذو الحدين .

(٤) النخاس : بائع الدواب لأنه ينخسها لتنشط ويطلق على بائع الرقيق .

العبد ليس حُرّاً صالحاً بأخ لو أنه في ثياب الحرّ مولودٌ
لا تشتّر العبد إلا والعصا معه إن العبد لأنجاسٍ منّاكيدٌ
من علم الأسود المخصى مكرمةً أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النحاس داميةً أم قدره وهو بالفلسين مردودٌ^(١)

ولقد تعددت نواحي العبقرية في شعر المتنبي وتجلت فيه طوابع الحكمة
والتجربة يقولها في كل شعره ، وأشبهها بواحات الفكر والخطاطر يقف عندها
مستريحاً ، وكانت ثقافته المتعددة وجولاته في البلاد سبيلاً إلى تعدد ألوان شعره ،
فن غرر ألوانه في الحكمة والعبرة هذه الأبيات :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظره إذا استوتُ عندهُ الأنوارُ والظلمُ^(٢)
خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زُحل
لعل عتبك محمودٌ عواقبه وربما صحت الأجسامُ بالعلل
ولإذا الشيخ قال أف فما مل حياةً وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولي
أبي خلق الدنيا حياً تديمه فما طلبي منها حياً تردهُ
ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغىظ من عاداك من لا تشاكل
فلا تطمعن من حاسد بمودة وإن كنت تبليها له وتيسلُ
ومن ألوان شعره التي انتهت إليها الجودة والبراعة شعر الحرب^(٣) ، فلقد بلغ به

شأواً يناصي به هوميروس في ملحمة « الإلياذة » . ولو جمع شعره في وصف
الحرب والمعارك في تتابع واحد وأعطى العرض والتحليل لكان في ذلك بعض الوفاء
لشاعر أعطى العربية روحه ودمه ، فقد وصف الخيل وصفاً يبذ فيه ما قاله

(١) اطلب القصيدة في قسم النماذج .

(٢) انظر طائفة من حكمه في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٣) للدكتور زكي المحاسني كتابه الكبير (شعر الحرب في أدب العرب) طبع دار المعارف

الأوائل من تصوير شياتها وحركاتها ، وصهيلها وأعراقها ، وتسلسل بنفسه إلى الوقائع الحربية مع البيزنطيين فكان شعره بوق الحرب الذى نام سيف الدولة فى قبره على هدير صوته ، فمن هذا الشعر الرائع وصفه وقعة « الحدث الحمراء »^(٢) سنة ٣٤٣ هـ :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أى الساقين الغمامُ
بناها فأعلى والقنا تفرع القنا وموج المنايا حولها متلاطمُ
خميس بشرق الأرض والغرب زحفهُ وفى أذن الجوزاء منه زمازمُ^(٣)
ومن ألوانه المديح الذى ضمن له مكاسب عمره وتسابق إلى الحصول عليه
الملوك والأمراء لأبنة يصور ممدوحه فى شعره صورة يضمن لها البقاء ، وهو الشاعر
الذى يكاد يكون وحيداً فى الشعراء المادحين بطريقته ، إذ يضع نفسه فى منزلة
الممدوح فيتكلم على الصفات التى يعجب بها من فطانة وكرم وشجاعة ، ويتناول
ممدوحه بمثل هذه السجايا .

وهذا ضرب من السمو لم نشهده عند المادحين الذين كانوا يتواضعون
ونحنون أمام الرؤساء والملوك . ومن مزايا المديح عند أبى الطيب قدرته على إبراز
ممدوحه بصفات تلمزه فهو يعتمد كالمصور البارع إلى الخطوط المؤسدة لشخصيته
ثم يقيم عليها قطعه الفنية ، ومن هنا برزت أصالة المدح عنده .
مدح سيف الدولة يوماً وقد أهدى إليه سيفاً — وأما دميحه فيه هى المجموعة
الكبرى من شعره الذى اختص به صاحب حلب ، فهو يقول فيه :

معطى الكواعب والجرد السلاهب والـ بيض القواضيب والعسالة الذبل^(٣)
ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك ملء الزمان وملء السهل والجبل
فحنن فى جذك والروم فى وجل والبر فى شغل والبحر فى خجل^(٤)

(١) الحدث Edessa مدينة على الحدود البيزنطية « الثغور » سميت بالحمراء فى شعر المتنبي
إما لتراها الأحمر أو للدم الذى سفك حولها ، وكانت بيد العرب فهدم سورها الروم لكن سيف الدولة
أمر بإقامته وإعادةه والمعركة دائرة .

(٢) الحميس القطعة من الجيش تقسم أخاساً — وهذه القصيدة فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٣) هو الذى يعطى من يجود عليهم الجوارى الشابات والخيول الطوال والسيوف المواشى والرماح

اللدة اللينة . (٤) الجذل : الفرع .

ليت المدائح تستوفى مناقبه فاكليبُ وأهلُ الأعصرِ الأوّل ؟
جاز الدروبَ إلى ما خلفَ خرشنة وزال عنها وذاك الرّوع لم يزل^(١)

حتى يقول له على عادته في المديح في مساواة نفسه بالممدوح :

ناديتُ مجدّك في شعري وقد صدّرا يا غير متّحِل في غير منّتحِل^(٢)

ومن ألوانه الرثاء : فقد برع فيه ، وأجلُّ مرثيتين قالهما في حياته الشعرية — وهما يعدلان الكثير مما قاله الشعراء في الحزن والتفجع — مرثيته لجدته والثانية لحولة أخت سيف الدولة التي توفيت بعد سبع سنين من تركه حلب وقد شفت الثنان عن عاطفة بالغة وحنين وصدق . فن قوله في الأولى^(٣) :

لك الله من منجوعة بحبيها قتيلة شوق غير ملحقها وصمّا
أحنّ إلى الكأس التي شربتُ بها وأهوى لثواها الترابَ وما ضمّا
حرامٌ على قلبي السرور فإنّني أعدّ الذي ماتت به بعدها مُسمّا

ويتجلى في رثائه الحزن العميق والشعور الصادق المتدفق ، وهو لا يقصره على تعداد المزايا في المرثي وإنما يثير حوادث وذكريات فيعيش في نطاق من حزنه الحى ويسلسل الحوادث حتى تبدو في شعره نزاعة إلى أسلوب القصّة فلا يكون القارئ والسامع غريباً عن أفقها . وإنما هو ينسجم ليعيش فيها مع الشاعر ، وهذا منتهى البراعة في التجاوب والتأثير .

أما لون المهجاء الذي عنده فهو كما يقول الغربيون في أدبهم يتخذ شكل (ساتير)^(٤) بل هو حرب عاصفية ينزلها أبو الطيب على من كادوا له وخيوا

(١) خرشة مدينة بيزنطية حصينة على الصخور واسمها بالرومية Carchianose .

(٢) المنتحل المدعى زوراً وباطلاً ويريد دعوت بشعري مجدك فاصطحبا وفيين وسارا في الآفاق وهذا النداء هو (يا غير منتحل في غير منتحل) أى يا أصيل المرق في الكرم والقوة يمدحك شعر أصيل القول في القوة والصدق مثلك .

(٣) المرثيتان في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٤) Satyre : إله من الأساطير اليونانية من الطبقة الثانية ، ويمثلونه بإنسان ذى وجه وحشى له أذنان طويلتان ولحية ثائرة ورجلاه رجل وعط وهو في الآداب الأوروبية يمثل المهجاء والملاذع .

أمله ؛ وهو لا يكون في أماجيه إلا منتقماً أو مدافعاً عن نفسه ، لقد هجى جماعة في الشام وهجى كافوراً الإخشيدى أمرّ هجاء ولو نهض اليوم من رمامه لأشقى مما ترك لهم من أوصاف السوء ترويه العصور وتردها الأجيال^(١) .

وأما الوصف والغزل ، فإن في القصائد التي قالها أبو الطيب في الرثاء والهجاء وفي المدح والفخر صوراً رائعة وصف فيها كل ما مرتّ بخياله ونفسه من حياة البادية ومواقع النضال الذي شهده مع سيف الدولة ، وكان هو يصف الخيل والفرسان بشعره ، وكأنه مصور أمام لوح يودعه الخطوط المعبرة والألوان الناطقة ، ولم يترك منظراً من مناظر الفوز والهزيمة إلا صورته ، كما انطبع في باله ونخالط إحساسه ، وكانت ألفاظه الجذلة تحمل كثيراً من المعاني والأفكار فيؤدى بها ما يريد من تصوير شعوره بالحياة ورأيه فيها ، وهو حين صور صراع ابن عمار للأسد أتى بتهاويل وتبديع^(٢) وحين وصف شعب بون وهو بساتين بفارس نزلها كان رساماً ماهراً للطبيعة ، ومن فنه في الوصف أنه يعطى الأشياء روحاً وحركة ، وهو الذي أدرك جمال السكون وجمال الحركة ، ولعله اطلع على فلسفة زينون الإيلياى^(٣) فأخضعها للشعر حسبما تمثلها وراح يصف حسناء قال فيها :

تناهى سكونُ الحسنِ في حرّ كاتها .

وجرى أبو الطيب على عادة الشعراء في الغزل فكان يستهل أبياته متغزلاً ثم ينساب مع طبعه وشعوره فيقول المعاني التي يريدتها ، وأكثر ما بدا غزله رقيقاً شفافاً حين كان في حمى سيف الدولة وبعد أن فارقه أسفاً حزيناً .

لم يكن المتنبي شاعراً غزلاً أرصد شعره للحب والغرام لكنه على عنفه وغلبة عقله كان ألوفاً يستجيب لدواعي الهوى والعاطفة .

(١) انظر مختارات من الأماجى ، في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٢) اطلب القصيدة في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٣) زينون الإيلياى : فيلسوف يونانى ولد بين ٤٩٠ و ٤٨٥ ق . م . اشتهر بنظرية استحالة الحركة ومن ثم استحالة التعدد اعتماداً على أن تجزئة الزمن والفضاء إلى ما لا نهاية له يجعل الحركة مستحيلة . ومن الأمثلة التي ضربها لذلك مثل : « أشيل والسلحفاة » ومثل : « السهم الطائر » فزعم أن أشيل لن يستطيع إدراك السلحفاة مهما كانت المسافة قصيرة بينهما وأن السهم الطائر غير متحرك لأننا نجه في كل لحظة في نقطة محددة وهذا معناه أنه ساكن غير متحرك .

ولقد كشفت أماديجه لأمبر حلب عن عشق لأخته «خولة» طواه في فؤاده طويلاً لكنه في شعره لم يستطع أن يخفيه فقد تملك حسه وسرى في أبياته أنيناً وشكوى ، فلما ماتت المحبوبة التي تعلقها ، دل رثاؤه إياها ، على لوعة لم تكن في غير الهائمين المعاميد .

فالمنتبى عرف العشق وأقرّ به في شعره وردد من ألفاظه ما أكد هواه ، فغزله إذن تعبير صادق ولم يكن تكلفاً وتقليداً .

ح - المآخذ عليه

بعد أن أورد العكبرى - وهو من أفاضل الذين شرحوا ديوان أبي الطيب - قدراً كبيراً من الأبيات المتفرقة المختارة له قال :

« فهذا الذي لم يأت شاعر بمثله ، وإنما ذكرناه مجملًا ليسهل أخذه وحفظه ، ولو تصفحت دواوين المجيدين المولّكين والمحدثين لم تجد لأحد منهم بعض هذا إلا نادراً ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ويؤتي الحكمة من يشاء » ^(١) .

وكان العكبرى ترك للناس أن يبحثوا في ديوان أبي الطيب عن الشعر الذي يؤخذ بأخطائه وما ند فيه من معنى . أفلم يقل في صباه ؟ :

بانوا بخرعوبة لها كفلٌ يكادُ عند القيام يقعدها
ربحلة أسمرٍ مقبلُها سبحة أبيضٌ مجردُها ^(٢)

لكنه في هذه القصيدة التي جاء فيها بهذا الغريب الموحش كان يقول :
يا عاذل العاشقين دَعُ فنةً أضلّها الله كيف ترشدها
وجدّ المنتبى وراء الثقافات الثقيلة وكان يجد فيها صدى حياته المجلجلة فهو يقول :

شرف ينطح النجوم بقرنٍب ٤ وعز يقلقل الأجيالا

(١) العكبرى ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) الخرعوبة : في البيت الأول الشابة اللينة ، والربحلة : الحسيمة . والسبحة : الطويلة .

وهذا البيت يذكرنا بقوله المعروف الذى استندارت عليه حلقات البلاغيين
فى تقديم إياه وهو :

فقلقت بهم الذى قلل الحشى قلاقل عيس كلهن قلاقل

ومن المستكره المأخوذ عليه من التكرار وسوء التركيب قوله :

مبني من دمشق على فراش حشاه لى بحر حشائ حاش

وأكثر النقاد القدامى من المآخذ الشكلية على أبي الطيب وأرقوا أعينهم كثيراً
فى حل معانيه فاتهموه بالسرقة والاقتباس وقد تبينوا أرواحاً من هذه المعانى حائرة
فى شعر الأقدمين وقد يتفق أن يكون شاعر قبله أو عاصره قال بيتاً فيه ذلك
المعنى كقول شاعر متقدم :

يا مَحَل الآرام والعين أهلاً لك فى القلب منزل ومحل

فكان من قول المتنبي :

لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أوائل

ولإذا قال أبو العتاهية :

ولإذا الجبان رأى الأسنه شُرْعاً عاف الثبات فإن تفرّد أقدماً

فكان من قول المتنبي :

ولإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والتزلا

وتتبع غير هذه الشواهد صاحب اليتيمة فى فصل : (صدّر من سرقاته) ^(١) ،
كما أورد الجرجاني فى الوساطة طوائف من هذا القبيل لأبي الطيب ولن نعلمه
كأبى تمام الذى يحصى له الكثير مما سمّوه سرقات .

أما المآخذ التى أصابت المتنبي من المعاصرين فى القرن العشرين - وهؤلاء
تبعوا هفواته ونبواته ودلوا من وجهة نظرهم على عيوبه - فن أجّل ما رأيت من

آثارهم مقالاً لطبيب العظام الأديب الباقعة الدكتور محمد كامل حسين^(١) هاجم فيه أبا الطيب هجوماً لم يعرفه الشاعر من قبل . إذ لم يكن برهانه مبنياً على الأساليب القديمة في تجريح أبي الطيب وبيان أخطائه ، وإنما اتخذ فيه أدوات حديثة من معامل التحليل النفسى ، فقد عرض هذا الطبيب الأديب أطرافاً من حياة المتنبي في معرض من علم التحليل النفسى ، فعمل تعقيده وغمرضه لبعض شعره بأنه أثر من آثار حالته النفسية في الانهزام وضبعة الأمل أو أن المتنبي قليل النصيب من الخيال لاعتماده على العقل ، وأنه ضئيل العدة من التشايب الحسية لسيطرة العقل عليه أيضاً ، وقد أحدث هذا المقال هزة في أوساط الأدب المعاصر لما فيه من التحقيق الجديد المبني على العلم والتحليل . أما عميد الأدب الدكتور طه حسين فهو بعد أن ألف في المتنبي كتابيه اللذين سماهما « مع المتنبي » لا يزال يتسقط زلانه ولا يعده الشاعر المُجْدَى الذى يستحق كل هذه العناية من الأقدمين والمعاصرين . وهذه الآراء المتضاربة التى ما زالت تقال في أبي الطيب كلما عرض متبّع لشعره وأخباره بالتمحيص والتعليل تدل على عبقرية ودعوة تجلّت في شعره ورحلاته ، وستبقى كل منها موضع البحث والرأى في الدراسة الحديثة ، كما أن العناية الدائمة بالمتنبي سواء أكانت من المستشرقين أم من أدباء العربية تردنا إلى ما يتردد في أمانى الجيل وما يحول في خواطر القائلين في بعث العروبة التى حمل لواءها هذا الشاعر الخالد داعياً إلى حكم عربي سليم ، ومن أجل هذه الدعوة لقي الملوك والرؤساء وكابد الويل والنكد ، ولولا تعاظمه ومطامعه ، وحرصه على المال لحقق كثيراً من الأمل لكنه سام نفسه طلب الحال ...

(١) انظر المقال في مجلة الكاتب المصرى لشهر نوفمبر ١٩٤٥ وردت الكاتبة العربية وداد سكاكيت عليه في عدد ديسمبر من العام نفسه حين قالت له : لو تقدم بك الزمن يا طبيب العظام المشهور ، أو تأخر بالمتنبي حتى التقيتما لحففت إليه قداويه بأرض مصر حين قال فيها وقد نزلت في جسمه حصى البرداء :

بذلت لها المطارف والحشايا فعاقتها وباتت في عظامي

بديلاً من فقدك إياه وتحطيمك له بتحليلك لنفسه ! ...

ثم توسع العالم الأديب في موضوعه وعدل فيه حين نشره بكتاب « متنوعات » طبع بمطبعة مصر سنة

د - شراحه في الشرق والغرب

لقد اتفق لأبي الطيب من العناية بشعره ما لم يتفق لشاعر عربي قبله ، فكانت تعقد بمصر على أيامه فيها حلقة لشرح ديوانه وكانت هذه الحلقة تحت إرشاده^(١) . وفي حلب لم تخل مجالس الأدب من ذكره وحفظ شعره وتفسيره وروايته ، وكان اسم المتنبي دوماً مقروناً باسم سيف الدولة ، وفي شيراز حيث عاش عضد الدولة زمناً كان شعر أبي الطيب موضوع بحث ودراسة واستشهاد ، حتى انتقل إلى بغداد وفيها تغلغل اللمز للشاعر وديوانه حياً وميتاً .

ولم يُنح لشاعر عربي من النقد والتحليل لآثاره في القديم والحديث ما أُنِح لأبي الطيب ، وكان له في القدامى محبون وخصوم ، وكذلك في المحدثين من المعنيين بدراسته والمقارنة بينه وبين غيره .

تبع الحاتمي البغدادي شعر المتنبي وادعى أنه اجتمع به وناقشه فيه ، ذكر ذلك في رسالته الخائية^(٢) ذكر فيها سرقاته والساقط من شعره ، وما ذكره أن مصدر الآراء الفلسفية عند المتنبي هو أرسطو ، أما ابن جني فقد شرح ديوانه شرح معرفة وملازمة للشاعر وقد روى أن شعر أبي الطيب كثير وأن ما في الديوان هو المتداول في أيدي الناس من شعره ، وكذلك أبو العلاء المعري أطلع به وشرح شعره . أما المتأخرون فقد كان من أفضل جهمتهم في العناية بالديوان الشيخ ناصيف اليازجي^(٣) الذي أسدى إلى المتنبي يداً لا تُنسى في سجل الزمن ، إذ حل معانيه وضبط شعره وقوافيه بما يوافق روح الشاعر وأدبه .

وكان الأستاذ عباس محمود العقاد - يرحمه الله - سباقاً إلى دراسة المتنبي على المنهج العلمي الحديث فجاء بحثه المنشور في مطابعاته^(٤) جامعاً بين الجدة والدقة في الاستنباط والتقصي والمقارنة .

كما أن من آثار الدكتور عبد الوهاب عزّام - عليه رحمة الله - كتابين

(١) بلاشير في كتابه عن المتنبي ص ١٩٧ .

(٢) مجلة المشرق البيرونية سنة ١٩٣١ ص ٢٠٥ وكذلك ابن خلكان ج ١ ص ٥١١ .

(٣) طبع بيروت .

(٤) « مطالعات في الكتب والحياة » طبع مصر سنة ١٩٢٤ .

في المتنبي واحداً لذكراه وآخر هو شرح ديوانه ، في الأول^(١) أثبت الانطباع الخالد لشعر المتنبي في نفسه وعرض لسيرته الزاخرة بالأحداث. وقد قدم للقوائد في شرح الديوان بذكر ظروفها وأحوالها الاجتماعية والسياسية .

هذه القصائد قالها أبو الطيب مثلما ينفخ النسيم أو تهب العاصفة. وقد فرغ منها ثم ترك الخلق يبحثون فيها في عهده ومن بعده ويتداولون الرأي والنقد ونام هو عنهم جميعاً بعين طاب لها الرقاد في ظلال الخلود وهو القائل :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراًها ويختصم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صم
حتى حار أبو العلاء المعري في هذه النبوة التي جاءت من المتنبي يوم نظر هو بشعره بعد موته .

وقد تتبع المستشرق الأستاذ بلاشير أكثر ما ألف في موضوع المتنبي عند الشرقيين والغربيين ، وعنى المستشرق الإيطالي جابريللي بدراسة المتنبي ، وهو يرى في شعره ما يأتي :

١ - المتنبي أقرب إلى القدماء منه إلى المحدثين .

٢ - ديوانه صدى المعرفة العميقة بدواوين الجاهليين والإسلاميين والمولدين .
وقد كتب هذا المستشرق دراسة لحياة أبي الطيب^(٢) من الوجهة الذاتية لا الموضوعية فاستخلص الأمور الآتية :

١ - امتلاء ديوانه بالمدايح والمراثي وهذا قسم خلقته المنفعة الخاصة .

٢ - أقيم التصنع في هذا القسم مقام الاختيار وحلت التشبيهات والحجاز محل السمات الخاصة بكل شخصية ، بمعنى أن الحقيقة في ممدوحه حسب رأيه بقيت ظلالاً باهتة . وما يزال المستشرقون معنيين كل العناية بدراسة المتنبي وشعره لأنهم يجدون فيه مجال القول ذا سعة وموضوعاً متعدد النواحي يعوزه الشرح والتحليل على المنهج الجديد . كما ترجم له للفرنسية « غوستاف شلومبرج » في كتابه العظيم الضخم « ملحمة ينسيفور فوكاس » قصائد حربية رائعة . . .

(١) طبع الديوان بمصر وطبع كتاب الذكرى الألفية سنة ١٩٣٦ بمصر .

(٢) جريدة الجمعية الآسيوية الإيطالية بفلورنسا سنة ١٩٢٦ .

٢ - ديوانه الحافل

١ - المتنبي بين خصومه ومحبيه

كان كلامي على حياة أبي الطيب وسيرته ممزجاً بنزعات شعره ، فإن أبا الطيب شاعر أرخ حياته وصور حوادثه في شعره ولم يجمع ، والذين نسقوا ديوانه حسب أدوار حياته صنعوا الجميل لتاريخ أدبنا أكثر مما صنع العكبري ، ومن رتب ديوانه على حروف الهجاء مثله ، فكان أن ضاع بذلك على الدارسين والباحثين منهج التسلسل في حياة الشاعر جرياً على الطريقة السخيفة التي سار عليها الأوائل وبعض الأواخر ، في جمع دواوين الشعراء ونشرها حسب حروف الهجاء في القوافي والروى ، وهذه الطريقة إن دلت على شيء فلا تدل على أكثر من لعبة تصنيف للحروف وإحصاء لعدد الأبيات .

من أعظم قصائد أبي الطيب « سيفياته » التي قالها في مدح سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب . ويلاحظ المستشرق الأستاذ ريجيس بلاشير في كتابه الذي وضعه عن المتنبي سنة ١٩٣٥ قبل ذكره الألفية بعام واحد أن أبا الفرج الأصبهاني لم يذكر أبا الطيب في كتابه الأغاني لكرهه للشاعر ، وأرى أن إغفال هذا الذكر ربما كان عمداً ، وأن الأصفهاني الذي صنع أغانيه في خمسين عاماً وقدمه إلى سيف الدولة فأجازه عليه بألف دينار واعتذر ، قد يكون هذا الاعتذار على أنه تلقى الكتاب في أواخر عمره حين ضاقت يده عن جزالة الإكرام وذلك بعد غلبة البيزنطيين وخيبته قبيل موته ، ومن عجب أن يسكت سيف الدولة عن إهمال أبي الفرج لذكر المتنبي وفي هذا إهمال للأمر نفسه .

ولقد لقي شعر المتنبي تحيزاً فانقسم نقاده فريقين : واحدٍ معه وآخر عليه ، وألفوا الكتب المطولة في ذلك ، وكان أعداهم القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٤٩٢ هـ كان قاضياً في « الرى » فوضع في أبي الطيب كتاباً سماه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » . كما وضع أبو الحسن الإفريقي المعروف بالمتيسم الذي عاش في عهد نوح بن منصور الساماني في أواسط القرن الرابع للهجرة كتاباً بأبي الطيب سماه

« الانتصار المنبى عن فضل المنبى » - ونجد البديعى الخطيب الذى توفى سنة ١٠٧٣ للهجرة قد وضع كتاباً عن الشاعر سماه « الصبح المنبى فى الكشف عن حيثة المنبى » (١).

أما العكبرى أبو البقاء فقد شرح ديوان أبى الطيب سنة ٥٩٩ للهجرة وقراه فى مصر على كبير أشياخها فى عصره محمد بن صالح التيمى النحوى، كما قرأه على أبى الحرم بن ريان الماكسينى (٢) بالموصل معتمداً على أبى الفتح بن جنى فى شرحه لديوان أبى الطيب ثم على شرح أبى العلاء المعرى وأبى زكريا بن الخطيب واستفاد من شروح أبى على بن فورجة وأبى الفضل العروضى، وهذان من أهل القرن الرابع للهجرة كما كانت استعانتة كبيرة بشرح أبى الحسن الواحدى (٣) المتوفى بعد منتصف القرن الخامس للهجرة.

ب - حساده

إذا شئت أن تعرف لامرئ فضلاً مطوياً فانظر إليه على ألسنة حساده لأنهم خير ساحة لنشر هذا الفضل. ولم يتصد لشاعر كما تصدى لأبى الطيب من المنتقصين والحاسدين، فهو منذ ظهر شاعراً وخرج إلى البلاد متكسباً وداعياً ابتلى بمن يحقد عليه ويرميه بالسوء والوشاية، وكان يهون عليه أن يصاب جسمه وتسلم كبريائه ورجولته فيتعاطم ولا يبالى كبيراً ولا صغيراً. ولهذا اشترى كثيراً من الخصومة والعداوة بالاستهانة والتحدى، كما كانت عبقريته فى الشعر وطموحه إلى المجد سبب الأقاويل التى لحقه غبارها، والمطاعن التى وصمه بها حساده، فإذا قال الشعر فتشوا عن عيوبه أو كادوا له عند ممدوحه، فأولوا معنى الشعر بما يؤذيه، ويجعل الممدوح مرتاباً فيه، وإذا راح يطاب حظاً سبقه الحساد وزاحموه عند ذوى الحكم والأمر، ووقفوا له بالمرصاد.

(١) نشر هذا الكتاب على هامش الطبعة الأولى لشرح ديوان المنبى للعكبرى.

(٢) نسبة إلى ماكسين بلدة بمجعات الجزيرة على الحلبور.

(٣) طبعة فريدريك ديتريشى ببرلين سنة ١٨٦١ م.

لقد حسدوه على حياته في مقامه وترحاله وفي حرمانه وكفاحه ، حتى اغتنى
وصار اغترابه في طلب المعالي لا في طلب المعاش ، ولكم شكاً في شعره وعبر عن
شكواه بأبيات كثيرة ولأسباب متعددة ، وكان أشد ما أصابه من هذا الحسد حين
أقبلت عليه الدنيا في حضرة سيف الدولة ، وفي مجالس الأمراء والحكام الذين
استهواهم بشعره ودعوته ، حتى أعلن لسيف الدولة ما لقي من كيد الشعراء والمزاحمين
طالباً أن يضغط عليهم :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنفت الذي صيرتهم لي حسداً
وما تغاضى يوماً عن طاعن أو حاقد ، بل كان يزيد غيظاً ونقمة بما يذيع
من التشنيع عليه والتعاضم ، فأكثر من ذكر الحسد بشعره ولم تخل أكثر قصائده
من شكوى الحساد حتى سمي ابنه محسداً ، إغاظه لحساده ، فأهاجهم وأثار
حقدهم بقصائده ولم يتورعوا عن اتهامه بأبشع التهم ومنها سرقة الشعر والتعالى على
السلطان فشغل البال وملأ المجالس بذكره وخبره ، ولم يستطع أحد منهم أن يطعنه
في خلقه وعرضه .

وكان الشاعران الخالديان في جملة حساده .

ومن طريف ما يروى عن هذا الحسد وتعريض المتنبي بصاحبيه أن المتنبي
أنشد يوماً سيف الدولة قصيدة من قصائده وفيها هذا البيت :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحق أراه غباري ثم قال له الحق

وكان المتنبي يقصد التعريض بالخالديين . وسبب التعريض الواقعة الآتية :

قبل إن الخالديين قالوا لسيف الدولة إنك لتغالي في شعر المتنبي ؛ اقترح
علينا ما شئت من قصائده حتى نعمل أجود منها ، فدافعهما زماناً ، ثم كررا عليه
فأعطاهما هذه القصيدة ، فلما أخذها قال أحدهما للآخر ما هذه من قصائده
الطنانات فلم اختارها من دون سائر شعره ؟ ثم عادا ينظران فيها حتى انتهيا إلى هذا
البيت ، فقطنا لمراء سيف الدولة ولم يعاوداه بذكر المتنبي ولم يعملوا شيئاً .

ولم يسلم أبو الطيب مع ذلك من كيد الحساد وحقدهم لكنهم جميعاً كانوا
دونه شعراً وقدرأ في نظر النقاد والأشياء ؛ فنشأ له من جراء ذلك أعداء أعادوا إلى

الأذهان ما كان يقوله شعراء المهجاء في القرن الأول للهجرة ، وحين هاج شعراء بغداد على أبي الطيب بتحريض المهلبى الوزير البويهى ^(١) لترفع أبا الطيب عن مدحه ، وكان من خصومه ، ومعهم أبو الفرج الأصفهاني ؛ فكان من قوله فيمن تقدمهم وهو عند سيف الدولة ^(٢) :

أنى كل يوم تحت ضبى شويعر ضعيفٌ يقاوينى قصيرٌ يطاول ^(٣)
وقيل له فى ذلك فقال لقد فرغت من الرد عليهم حين قلت فى طبقة هى أعلى منهم فى الشعر :

أرى المشاعرين غرّوا بسدى ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض يجحد مرّاً به الماء الزلالا ^(٤)
ومن أولئك الشعراء الذين ذموا المتنبي ببغداد ابن سكرة وابن لنكك وابن الحجاج ، لا يذكرهم الناس اليوم إلا لماماً وقد عفى الزمان على أخبار أكثرهم ، بل يذكرون المتنبي فى كل حين وسانحة ، ولو تسامحنا وقلنا عاش مع أبا الطيب شعراء كانوا كواكب أيامهم ، لقلنا إنه طلع بينهم شمساً وصدق فيه قول الشاعر الديباني الذى خص به النعمان :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

(١) « معلمة الإسلام » الترجمة العربية بمقال ليلشير ص ٣٦٩ .

(٢) قال العكبرى عند شرح هذا البيت والذي يليه (هذا إشارة إلى الذين كانوا ينازعونه الشعر عند سيف الدولة) ج ٣ ص ١١٧ طبعة البابى بمصر .

(٣) الضبين ما تحت الإبط إلى الخاصرة . أى شاعر أضعه تحت إبطى لفألة حاله ومقاله . يقاوينى : يبارينى بالقوة .

(٤) « اليتيمة » الجزء الأول ص ٨٥ .

٣ - تأثره وتأثيره

١ - ثقافته

تلقى المتنبي ثقافته الأولى في «كتاب» بالكوفة كان يدخله أولاد الأعيان من الكوفيين فتعلم العربية لغة وإعراباً وشعراً، ثم ارتحل في مسهل شبابه إلى البادية حيث صاحب الأعراب ولا يسهم وأخذ عن شيوخهم كثيراً من أوابد اللغة وشواردها - كما قدمت - ورجع إلى الكوفة بعد سنين شاعراً حاذقاً عالماً باللغة وأسرارها، وتنقل من بادية العراق إلى بادية الشام ، ومن البدو إلى الحضر ، ومن المدّر إلى الوبر متردداً بين القبائل ومخايل العبقريّة مبشرة بخير منه كثير ^(١) ، وكان الفضل بذلك لأبيه الذي لازمه في هذه الأسفار الأولى ، ولما اشتد ساعده قرأ على أكابر ائعلماء في عصره منهم الزجاج أبو إسحق ، والسراج أبو بكر كما قرأ على نبطويه وابن درستويه ، ولزم أبا بكر محمد بن دريد وقرأ عليه، ولم يترك كبيراً من علماء عصره دون أن يتصل به ويتلقى عنه .

وقد لازم الوراقين ^(٢) واتخذ كراريس يودعها شعره وخواطره ونظراته فيما يروقه أو لا يروقه من شعر النوابيع : أبي تمام والبحترى وشار وأبي نواس ، وكانت هذه الكراريس عدته وزاده في تجواله ورحيله . ولقد بقى أثر البادية عميقاً في حياته مطبوعاً في ذهنه وخياله فكان شعره لا يخلو من هذا الأثر حتى بعد انتقاله إلى الحضر، فكانت لغة البادية في معانيه وقوافيه، يهيج فؤاده بالأعرايات ويترنم بالوفاء والقداء ويعبد البطولة ، ويتغنى بالرماح والسيوف ومحجمات الخيل وهدير الفحول .

لكن المتنبي الذي تناهت إليه ثقافة البادية والتطواف لم يقتصر عليها وما وقف دونها، بل خرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة - كما قال القاضي الجرجاني - وراح يقرأ الفلسفة والمنطق ولا شك في استفادته من فلسفة الفارابي الذي كان

(١) اليقظة ج ١ ص ٧٩ .

(٢) الوراقين : باعة الكتب .

معروفاً بجلب في مقامه عند سيف الدولة ، وله مقولات وآراء في قضية الشعر وعلاقته بالموسيقى ، كما تأثر بمقولات أرسطو وعكف على كتب التصوف حتى فهم المعاني فيه والمراي ، ودخلت شعره ألفاظ الصوفية والحكمة واستفاضت فيه خطرات نفسية وروحية دلت على استساغة ما تلقى من ثقافة حضرية تمازجت بالأول ، أما مدرسته الكبرى التي عبّ منها حتى ارتوى وبقى فيها حتى انتهى ، فهي الحياة نفسها بتجاربها ومقاليدها ، بشقاها ونعيمها ، فاكتمل شعره وظهرت خصائص هذا الشعر في تفكيره وشعوره غير منسلخة من أثر البادية ولا خالية من دواعي القلق والاضطراب فاستطاع أن يجمع بين ثقافتين ويفيد من حياة البدو ومعرفة الحضار .

وكان شعره مشابهاً — في مصطلح عصرنا — لجريدة كبرى أو دار نشر ، فعظم خطره عند خصومه وأحبابه . وبلغ من تأثير هذا الشاعر بشعره أن خافه الملوك وطمعوا بمدحه ، وقد أثر إلى ذلك في مجرى السياسة في عصره وأخبارها فأسبغ المديح والثناء على رجال ، وكال الهجاء والطعن لآخرين ، فجعل التاريخ في عهده يساق بمجدهاء هذا الهجو وذاك المديح لترسم صورته على الحق دون تزوير أو تزييف .

كما أثر في الشعراء الذين أتوا بعده فهم عالة على قصيده لا يرمون عنها حتى تدركهم التخمة وقد يتسللون إلى ديوان أبي الطيب كلما عصم القرائح وتمردت المعاني فراحوا يقتصون أروع ما عنده من القوافي والخواطر ، ول هؤلاء قصائد لو حُملت كلماتها ومعانيها مغناطيسية الرجوع إلى قواعدها عند المتنبي ، لما بقي لهم منها سوى الأوزان الجافية مثل سمكة ذهب لحمها وبقى شوكها .

ب — تأثيره في أبي العلاء وشوقي

أثر شعر المتنبي — من حيث هو فن — في الشعر العربي بعصره وفيمن أتى بعده ، فبعث في الشعراء همة إلى رفع شعرهم نحو طبقته ، لأن من عادة أهل الأدب الاقتداء والاتباع والمنافسة ، فأبوفراس الحمداني وأكثر الشعراء الحمدانيين

الذين ذكروهم الثعالبي كانوا ينسحبون على آثار أبي الطيب . وهم الذين حسدوه
وتتبعوا أخطاءه .

وأما الذين أتوا بعده وتأثروا به فهم كثير ، لو تجرد مؤلف لجاء لهم بكتاب
كبير فيهم ، على أنى أكتفى بشاعرين عظيمين عاشا في ظلال أبي الطيب أو في
تنسم وحيه ، وكان له في كل منهما أثر عميق عاش معه عمره . وقد يختلف القول
في أحدهما عن الآخر .

أولهما أبو العلاء المعري الذي أقبل على شعر أبي الطيب إقبالا ما عرف من
شاعر آخر مثله فتأثر بآرائه السياسية والاجتماعية والدينية أيضاً ، فأبيات
أبي الطيب التي يقول فيها :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحسالىن معنى سوى معنى انتباهك والمنام

نرى لها صوراً أشتاتاً في اللزوميات لا تكاد تحصى ، وترجع هذه الأشباه
عند أبي العلاء بروحها إلى المتنبي . وحين يفرقنا أبو العلاء بفلسفته الوعظية
وزهده في الحياة وذمه للمرأة وتبليانه للألاعيب النفسية والجنسية من أجل بقاء النوع
ويدعونا إلى ترك النسل لتعطيل العالم نجد أستاذه أبا الطيب يقول باختصار :

هل الولد المحبوب إلا تلة وهل خلوة الحسنة إلا أذى البعل
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشاق فيه إلى النسل
وأما فلسفة الموت والحياة التي عجز بها شعر أبي العلاء عجيماً فلإننا نجد ما
كلها صدى لهذا البيت عند أبي الطيب :

أنسكى لموتانا على غير رغبة تفوت من الدنيا ولا موهب جزل
إذا ما تأملت الزمان وأهله تيقنت أن الموت ضرب من القتل^(١)
أو قوله :

يكفن بعضنا بعضاً ويمشى أواخرنا على هام الأولى

وقد تقدم قولى عن مظاهر هذا التأثير فى شرح المعرى لديوان المتنبي ،
وقد سَمَى ذلك الأثر « بمعجز أحمد » .

والشاعر الثانى هو أحمد شوقى شاعر العربية فى القرن العشرين الميلادى . لقد أولع بشعر أبى الطيب فقلده فى سبكه وتعبيره والتزم فى أكثر قصائده أوزان المتنبي وقوافيه وروايتها ، ولكن شوقياً لم يكن يصنع هذا لنفسه تعلقاً بأبى الطيب فحسب بل اعتقاداً منه بأنه لا يقل عنه شأنًا . فهو مطبوع على الشعر متمكن من العربية ، فلماذا لا يقدم روائع كالتى أتى بها أبو الطيب يضاهيها بتلك المحاكاة وربما كان فيها الإبداع .

كان تأثير شوقى الذى جاء بعده بعدة عصور أقوى من تأثره بشعراء الغرب الذين قرأهم وتعلم ثقافتهم وأقام مدة فى بلادهم ، فتجلت طوابع المتنبي فى كثير من شعر شوقى . وقد حاكاه فى بعض معانيه وألفاظه ، ورثى جدته « تراز » بقصيدة عارض فيها ميمية أبى الطيب التى رثى فيها جدته .

٤ - المتنبي شاعر عالمى

يمزله فى الشرق والغرب

لقد احتل أبو الطيب المتنبي فى أدب العرب مكانة رفيعة ارتقى إليها وتبجح فيها بقوة واقتدار متعاضماً ومرغوباً فيه ، ولم يتح مثلها لغيره من شعراء العربية ، وليس للحظ دخلٌ فى ذلك ، فإن حساب الحظ يسقط فى القيم الأدبية الخالدة ، ويكاد يكون كتابى هذا يجملته بياناً لمنزلة الشاعر فى أدب العرب . وقد تقدم الكلام على ديوانه وشراحه ، ومن كتب عنه من الأقدمين والمعاصرين . وكفى برأى الجرجانى قاضى الرى بل قاضى الأدب أن تناول الشاعر بما هو أهل له فى كتابه « الوساطة » ^(١) حتى خلص إلى أن المتنبي هو الشاعر المتفوق وأن حملة النقد الكبرى التى حملت عليه كانت لنوازع المنافسة والحسد ^(٢) أكثر مما كانت

(١) « الوساطة بين المتنبي وخصومه » مطبعة العرفان صيدا سنة ١٩١٣ .

(٢) انظر الصفحات من ٣٠٠ - ٣٣٠ من الوساطة .

لغاية النقد والأدب . وقد خلفت له شهرة وجعلت الأنظار تتجه إليه راضية ، ومرت منزلة الشاعر عبر العصور فلإذا تناولها الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٥٣هـ لم يسئ إلى شاعريته فيها وإن تبسط بذكر شوائبه ، وجاء ابن خلكان سنة ٦٨١ للهجرة فترجم للمتنبي في كتابه المشهور « وفيات الأعيان » وكان قاضياً عادلاً كالخرجاني فوضع الشاعر في أرفع منزلة من الأدب العربي ، ثم قفى على آثاره البديعي في القرن الحادي عشر للهجرة فأطال البحث في قيمة المتنبي في الشعر والحياة بكتابه « الصبح المنبي » .

وناهيك بما لقي المتنبي من عناية المعاصرين بما تقدم ذكره ^(١) وخاصة في إقامة الحقول الأدبية الدراسية لشعره وأدبه في ذكرى عيده الألى سنة ١٩٣٦ في العواصم العربية وباريس ، وأهمها مهرجان دمشق الذي دام أسبوعاً في جامعة دمشق وباسم المجمع العلمي العربي .

أما منزلة المتنبي في أدب الغرب فقد احتلها رفعة مرموقة إذ أن الأدب العالمي يزن الشعراء والأدباء وأهل الفن بميزان المعاني الإنسانية ويطلب في أن يسمع الشاعرُ الناسَ أصداً نفسه وروحه وأن يعطيهم صورته الصادقة في الألم والحب والفرحة والبغضاء ، وأن يكون شيئاً ماحوظاً في تاريخ البشر بآثاره الخالدة ، ونفاذاً بنظرتيه وراء الوجود ، وكل هذا وجدته الغربيون في شعر المتنبي . فكان من السابقين إلى التعريف بأبي الطيب في أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين الأستاذ المستشرق القديم « غوستاف شلومبرج » ^(٢) الذي ترجم المتنبي بمواضع كثيرة من كتبه وعرف به وبشعره ، وبفروسيته وحروبه للبيزنطيين ، والمؤرخ الروسي إسكندر فازيلييف . وهو من السابقين أيضاً في الغرب

(١) لعل أقدم نسخة مطبوعة في ديار العرب لديوان المتنبي هي التي وقف عليها المعلم بطرس البستاني ببيروت سنة ١٨٦٠ للميلاد بالمطبعة السورية ثم كانت نسخة الديوان التي طبعها اليازجي في المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣٠٥ هـ من أم ماينبي لشعر المتنبي في عصرنا .

G. Schlumberger: un Empereur Byzantin au Xe siècle "Nicephor Phocace" (٢)

إلى التعريف بالمتنبى .

ثم مضى على أثرهما أستاذان كبيران أحدهما الأستاذ المستشرق ماريوس كانار فوقف جزءاً كبيراً من آثاره الأدبية في فرنسا والجزائر على أبى الطيب المتنبى والحمدانيين ، والثانى الأستاذ المستشرق ريجيس بلاشير الذى ترجم في كتابه الذى ألفه عن أبى الطيب قصداً كبيراً من شعره للغة الفرنسية .

وقد قدم هؤلاء وغيرهم من المستشرقين الألمان والروس والهولانديين والإتاليين أبا الطيب للعالم الغربى وللأدب العالمى فأروه شاعراً للعربية من طراز أعلى يعلم شعره المجد والمروءة والأخلاق ويبعث في النفس روح الحماسة والبطولة ، وهم جميعاً عدواً أبا الطيب (شاعراً عالمياً) لا يقل قيمة عن شعراء الأدب الأوروبى العالميين الذين ترك كل منهم حدثاً رائعاً في أدب أمته .

وقد غنى غير هؤلاء بالمتنبى طائفة من المستشرقين درس كل منهم ناحية خاصة من نواحيه في الأدب والفلسفة ، فعنى المستشرق لويس ماسينيون بناحية غربية في شعر أبى الطيب فعزا ما عنده من صلابة الأسر وتوقد الحماسة والميل إلى الحرب ^(١) إلى نزعة (قرمطية) سماها النزعة إلى سفك الدم ، وهذا مذهب ارتآه الأستاذ ماسينيون حين وجد القرامطة يدهمون الأمصار في عصر أبى الطيب ، وقد جاءوا البصرة والكوفة وأعملوا فيها النهب والفساد .

والذى أجده أن ميل أبى الطيب إلى الحرب كان نزعة عربية حرة في عصر عانى فيه العرب الانقسام والتناحر ومكايد الفرس والترك ، فكان أبو الطيب صاحب رسالة عربية في تحرير العرب من ربقة العجم وتجديد حياتهم بردهم إلى مثلهم العليا السابقة . ولا نستغرب هذه الرسالة من شاعر عربى حر كالمتنبى وإن تاريخ نضاله ورحلاته ، ومحتوى ديوانه . يدلان أوضح دلالة على هذه الخطة التى ما حاد عنها حتى مات ، وليس ما يسوغ تفسير النزعة العربية الواضحة الصريحة عند أبى الطيب بنزعة قرمطية دموية مرادها السفك والتقتيل ، وقد رأى رأى المستشرق

ماسينيون كل من الدكتور طه حسين ^(١) والدكتور شوقي ضيف ^(٢) .
 فهل تكون دعوة من نافح عن بلاده في ذلك الحين وقد تحكم بها الأجنبي
 إذا حمل السلاح ودعا للتحرير والكفاح نزعة قرمطية ، لأنها تهدد بسفك الدم ؟
 أو إذا قام في عصرنا داعية ثائر لتخليص بلاد العرب من سلطان الأجنبي
 والمستعمر والصهيونية الغاصبة فأخذ بالشعر ليعث الحمية والنخوة في العرب يكون
 قرمطياً ؟ إن الوضع لم يختلف في عصر المتنبي عما في عصرنا ، ولئن كان من حظ
 القرن الرابع أن وجد فيه شاعر كالمتنبي ينهض بتلك الرسالة فن لنا في عصرنا
 بشاعر؟ وشعراؤنا بين معتزل أو متغزل ، أولاه بمطامع الدنيا أو ماض مع النزعة
 الجديدة الخاسرة في تهديم الشعر القديم القويم .

وقد عني بالمتنبي عدا أولئك المستشرقين أنداد معاصرون فيهم : كارل
 بروكلمان ^(٣) ، وكارا دو فو ^(٤) ، كما كتب المستشرق الإيطالي غابريلي ^(٥)
 عن حياة المتنبي التي عرضها في معرض التحليل ووجد صاحبها شاعراً يرتفع إلى
 مصاف شعراء الغرب الخالدين ، وقد مارس هذا المستشرق دراسته لأبي الطيب
 خلال الأعوام ١٩٢٧ - ١٩٢٩ و ١٩٣٦ ويستخلص من هذا الفصل أن المتنبي
 بما ترك من شعر ودوى ، يعد من مفاخر الأمة العربية وأنه لا يقل قدراً ومنزلة عن
 أعظم الشعراء والعباقرة في أرم الشرق والغرب . . .

(١) راجع « مع المتنبي » للدكتور طه حسين .

(٢) راجع « الفن ومزاجه في الشعر العربي » للدكتور شوقي ضيف الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ -

ص ٢٠٣ .

(٣) « تاريخ الأدب العربي » بالألمانية .

(٤) راجع كتابه « مفكر الإسلام »

Carra de Vaux: Les Penseurs de l'Islam. Paris 1921.

(٥) طبعت هذه الدراسة سنة ١٩٠٩ في مدينة « سان بطرسبرغ » .